كيف يأكل الغرب نفسه؟ قراءة في تشريح تود لانحدار القيم والتماسك الاجتماعي الغربي

27 أكتوبر 2024

فكر وتحليل

5 دقيقة قراءة

كيف يأكل الغرب نفسه؟ قراءة في تشريح تود لانحدار القيم والتماسك الاجتماعي الغربي



استوقفتني تغريدة للدكتور أحمد الفراج يعرض فيها كتاباً كنت قد قرأته حين صدوره. ذاك أن إيمانويل تود، المفكر والديموغرافي الفرنسي الـذي سـبق لـه التنبـؤ بسـقوط الاتحـاد السوفييتي قبل 15 عاماً من وقوعه، يقدم في كتابه "هزيمة الغرب" تشريحاً لما يراه انتحاراً حضارياً غربياً.

والحال أن ما يقدمه تود ليس مجرد توقع لنهاية الهيمنة الغربية، بل تحليل عميق لعملية تفكك ذاتي تؤكدها الأرقام: تراجع معدلات المواليد إلى ما دون مستوى استمرار المجتمع (2.1 طفل لكل امرأة)، وارتفاع نسب المسنين، وانخفاض معـدلات النمـو الاقتصـادي إلـى مـا دون 1.5%

سنوياً، وتضخم الديون لتتجاوز 130% من الناتج المحلي الإجمالي.

بيد أن جوهر هذا الانهيار يكمن في تحول ثقافي عميق بدأ منذ الستينيات. يرصد تود تآكلاً تدريجياً للقيم البروتستانتية التي شكلت أساس النهضة الغربية. وفي تحليله، لم يكن هذا التحول مجرد تغير ثقافي عابر، بل انقلاباً في أسس المجتمع الغربي. فحين بدأت قيم الانضباط والعمل الجاد والالتزام الاجتماعي بالتراجع لصالح نزعة فردية متطرفة، تحولت المؤسسات الغربية من منظومة متماسكة إلى ما يسميه تود "ديناً بلا إيمان".

ذاك أن هـذا الانهيـار الروحـي، يتجلـى بأوضـح صـورهه فـي الهـوس المتزايـد بقضايـا النـوع الاجتماعي والهوية. فما بدأ كمطالب حقوقية تحـول تـدريجياً إلـى أيـديولوجيا تقـوض أسـس المجتمع نفسه. فانتشار ثقافة التحول الجندري والمثلية، في رؤية تود، لا يعكس مجرد تغيراً في القيم، بل يمثل "نكراناً للواقع" البيولوجي والاجتمـاعي. هـذا النكـران يعـبر عـن عدميـة ثقافيـة عميقـة تتجـاوز مسـألة الحقـوق إلـى تفكيك منهجي للهوية المجتمعية.

ولعـل النخـب الغربيـة، فـي تشريـح تـود، تتحمـل المسـؤولية الكـبرى عـن هـذا الانحـدار. فخلال العقود الماضية، تحولت هذه النخب من قيادة

التطـور إلـى رعايـة التفكـك، مسـتبدلة الإنتـاج الحقيقــي بالمضاربــات الماليــة، والتماســك الاجتمـاعي بالفرديـة المتطرفـة. بـل إن هـذه النخــب عملــت علــى تقــويض المؤســسات الديمقراطية نفسها، مستخدمة سيطرتها على المؤسسات الماليـة والإعلاميـة لفـرض أجنـدتها على المجتمع.

أما العولمة، في رؤية تود، فقد مثلت الضربة القاضية. فبدلاً من أن تكون أداة لتعزيز الهيمنة الغربيـة، تحـولت إلـى آليـة لتفكيـك المجتمعـات الغربيـة مـن الـداخل. تراجعـت حصـة الغـرب مـن الإنتاج العالمي من 50% في عام 2000 إلى أقل من 37% اليوم، وتحول 70% من أرباحه إلى

القطاع المالي. الأخطر من ذلك تآكل القدرة على الابتكار والتجديد، مع تفوق صيني متزايد في براءات الاختراع وتطبيقات الذكاء الاصطناعي.

ولعل تجربة العقوبات على روسيا تقدم المثال الأوضح على هذا العجز الغربي. فالحملة التي كان يُفترض أن تقصم ظهر الاقتصاد الروسي تحولت إلى درس في حدود القوة الغربية. بدلاً من الانهيار المتوقع، استطاعت موسكو تطوير بدائل صناعية محلية، وتعزيز تحالفاتها مع الصين والهند، وبناء شبكة علاقات اقتصادية جديدة مع دول الجنوب العالمي.

بل إن روسيا نجحت في تحويل العقوبات إلى فرصة لإعادة هيكلة اقتصادها. فبينما غرقت أوروبا في أزمة طاقة كشفت هشاشة نموذجها الاقتصادي، حقق الاقتصاد الروسي نمواً بنسبة 3.6% في 2023، مع تطور لافت في قطاعات التكنولوجيا والزراعة والصناعات العسكرية.

في المقابل، تقف الصين نموذجاً مضاداً للانحلال الغربي. فبينما يغرق الغرب في المضاربات المالية وأزمات الهوية، تنتج الصين اليوم 31% من القيمة المضافة الصناعية العالمية، مقارنة بـ 16.5% للولايات المتحدة و5.3% لألمانيا. الأهم من ذلك أن الصين نجحت في تحقيق هذا التقدم مع الحفاظ على

تماسكها الاجتماعي وقيمها التقليدية.

وأقول: في خضم هذه التحولات، تبرز المملكة العربية السعودية كنموذج يستحق التأمل. ذاك أن رؤية 2030 ليست مجرد خطة اقتصادية، بل محاولة واعية لتجنب المطب الذي سقط فيه الغرب: "التحديث المنفصل عن الجذور". فالمشاريع العملاقة كنيوم والدرعية والبحر الأحمر والقدية تجسد فلسفة تنموية تجمع بين التقدم المادي والحفاظ على الهوية.

يختم تود كتابه برؤية تفصيلية للنظام العالمي القادم: عالم متعدد الأقطاب تتراجع فيه الهيمنة الغربية لصالح توازن جديد. في هذا

العالم، كما يرى، ستلعب تحالفات الشرق والجنوب دوراً متزايد الأهمية، مع احتمالات لتقارب روسي-ألماني، وتعاون بين دول الجنوب، وصعود قوى إقليمية جديدة كالسعودية والهند.

والحال أن الدرس الأعمق من كتاب تود هو أن القوة الحقيقية لا تكمن في التخلي عن الهوية لصالح نموذج غربي متآكل، بل في القدرة على التطور مع الحفاظ على الجوهر الثقافي والاجتماعي. وهو درس يبدو أن دولاً كالسعودية والصين قد استوعبته جيداً، فيما يواصل الغرب انزلاقه نحو "الهزيمة الذاتية"، في مشهد يذكرنا بإمبراطوريات قديمة انتحرت

بيدها.